**الفصل الثاني : ماهية علم الاجتماع**

**أولاً – الرواد المؤسسون**

هناك أربع علماء ربما لا يختلف أي من المشتغلين بعلم الاجتماع – مهما كانت ميوله الخاصة أو نزعاته أو تعصبه – على اعتبارهم الشخصيات البارزة فى تاريخ علم الاجتماع الحديث. هؤلاء العلماء هم: أوجيست كونت, وهربرت سبنسر, أميل دور كايم, وماكس فيبر, وهم يغطون معاً القرن التاسع عشر بأكمله وأوائل القرن العشرين، وفي الحقبة التي تشكل فيها علم الاجتماع الحديث وتحددت معالمه. كما أنهم يمثلون القوميات الرئيسة التي ازدهر فيها علم الاجتماع في بداية عهده, والتي بدأ يتكون فيها تراثه الحديث, وهي فرنسا, وانجلترا, وألمانيا, كما مارس كل منهم تأثيراً شخصياً عميقاً على تصور علم الاجتماع كميدان من ميادين المعرفة. لذلك يبدو من المفيد بوجه خاص أن نعرض لآرائهم حول الموضوع الحقيقى لعلم الاجتماع(1).

يضاف إلى هؤلاء كارل ماركس وماديته التاريخية, إذ يرى بعض علماء الاجتماع أن علم الاجتماع الأكاديمي الغربي بأسره قد نشأ تحت تأثير ماركس وأنه ليس سوى سلاح أيديولوجي للبرجوازية لمواجهة الماركسية كسلاح أيديولوجي للاشتراكية. ويذهب عالم الاجتماع الأمريكي زايتلين إلى حد اعتبار أن أعمال يبروباريتو وموسكا وميشيلز ودور كايم ومانهايم حواراً مع شبح ماركس(2). ولا يعني عرض سير أو بعض أعمال هؤلاء العلماء وأيديولوجياتهم قناعة الباحث بأن تلك هي الرؤية الصحيحة؛ بل إنه عرض لجزء من تاريخ العلم بسلبياته وإيجابيته.

**- ماذا قال الرواد المؤسسون؟**

أولاً: أوجست كونت **Augnste Conte (1798-1857)**

على الرغم من أن أوجست كونت كان يرفض تحديد فروع علم الاجتماع بشكل مفصل الا انه كان يرى ان علم الاجتماع ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما: الاستاتيكا الاجتماعية Social Statics والديناميكا الاجتماعية Social Dynamics .

وتهتم الاستاتيكا بدراسة شروط وجود المجتمع وهي دراسة كيفية تداخل أجزاء المجتمع وتفاعلها مع بعضها، ويقول "**كونت**" في ذلك "ويتمثل الجانب الاستاتيكي لعلم الاجتماع في دراسة قوانين الفعل ورد الفعل التي تخضع لها مختلف أجزاء النسق الاجتماعي" ويستطرد **كونت** قائلاً "إن أجزاء المجتمع لا يمكن أن تفهم منفصلة عن بعضها كما كان لكل منها وجود مستقل، وعلينا بدلاً من ذلك أن ننظر اليها على اعتبار أنه تربط بينهما علاقة متبادلة وأنها تكون كياناً كلياً يفرض علينا أن نتناولها في علاقتها ببعضها البعض". وبصورة أوضح نقول أن الاستاتيكا هي نظرية النظام الذي يشير إلى الانسجام والتوازن بين ظروف وجود الانسان في المجتمع.

وقد ميز "**كونت**" بين ثلاث مستويات موجودة في المجتمع الفرد والأسرة والاتحادات الاجتماعية Social Combinations التي يقف على قمتها اتحاد الانسانية نفسها واستبعد الفرد من الدراسة السوسيولوجية حيث ينبغي أن يتكون النسق من عناصر متجانسة فقط وأن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الاساسية لكنه واجه المشكلة السوسيولوجية التي تدور حول العلاقة بين الفرد والمجتمع، ولاحظ تقارباً مستمراً ومنتظماً في اوجه النشاط التي يؤديها عديد من الافراد في المجتمع مع ان كل فرد يحيا حياته الخاصة الا انه يميل تلقائياً إلى المشاركة بين الجميع دون استشارة الاخرين.

وقد انتهى **كونت** إلى أن الأسرة تتمتع بدرجة خاصة من الوحدة وبطابع أخلاقي يميزها عن الوحدات الاجتماعية الاخرى، كما لاحظ عدم وجود درجة كبيرة من الفكر والتصور في حياة الأسرة حيث يتم اشباع الحاجات سريعاً على اساس من التعاطف ومن خلال التنسيق بين الاسر –حتى لو كانت في حالة العزلة- تظهر الاتحادات كالطبقات الاجتماعية والمدن التي تبنى على التعاون الشعوري، ويظهر النموذج السياسي أو الدولي من خلال العديد من الاتجاهات الاجتماعية.

اما الدولة فيشير **"كونت"** إلى ان النظام السياسي نظام مصطنع Artifcial إلى حد ما ولكنه في نفس الوقت تعديل للنظام الطبيعي للمجتمعات الانسانية وذلك لأي مجتمع لا يمكن له البقاء دون حكومة، والحكومة ممكنة نظراً لوجود رغبة واسعة في الحكم والقيادة بالإضافة إلى أنها تخفف عن الأفراد عند اتخاذ القرارات الضرورية لهم والتي تهم كل أفراد المجتمع وانساقه الاجتماعية.

فالاستاتيك يدرس هذه النظم في عناصرها ووظائفها بجانب الدراسة الاستقرارية وذلك للكشف عن القوانين التي تحكم الترابط "التضامن" بين النظم الاجتماعية.

وتبدأ الديناميكا الاجتماعية بدراسة النمو –في حد ذاته- أي دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلي للمجتمعات الانسانية والكشف عن مدى التقدم الذي تخطوه الانسانية في تطورها أي أنه يدرس الاجتماع الانساني في عمومه وفي جملته. ومن ناحية تطوره وانتقاله من حال إلى حال.

واعتقد **كونت** ان التطور الاجتماعي هو الاستمرار للتقدم العام الذي يبدأ من مملكة النبات، فالسلسلة الاجتماعية الكبرى تتطابق مع سلسلة الكائنات الكبرى وليس مع تتابع المراحل العمرية لكائن عضوي بسيط، ويعد هذا الافتراض عنصراً أساسياً في نسق فكري يؤكد التقدم المستمر، وفي نفس الوقت ذهب إلى فكرة مؤداها أن دراسة التقدم قد اصبحت عملية سهلة جداً طالما أن نمو كل الاجتماعات محكوم بنفس القوانين، ولذلك فإن إقامة المبادئ العامة يجب ان تتم عن طريق دراسة ضروب التقدم التي تحققها طليعة الانسانية ولم يكن للاستاتيك في نظره من الاهمية ما للديناميك، وذلك لأن الأول في نظره يعتمد كثيراً على النظريات الديناميكية، ولا يمكن الوصول إلى القوانين الاستاتيكية الا بعد كشف القوانين الديناميكية في المجتمع، ولذلك فإن كلامه عن الديناميك قد شغل جزءاً كبيراً من مؤلفاته وهوالجزء الجوهري من فلسفته.

ثانياً: هربرت سبنسر

كان **سبنسر** أكثر دقة من كونت في تحديد الموضوعات أو الميادين الخاصة التي كان يرى أنه كان يتحتم على علم الاجتماع أن يهتم بها. وقد تناول في كتابه (أسس علم الاجتماع) مجموعة من النقاط الهامة:

1- على علم الاجتماع أن يصف كيفية ظهور الاجيال المتتابعة من الوحدات المدروسة ونموها وإعدادها للتعاون.

2- تطور الأسرة.

3- نشأة وتطور النظام السياسي.

4- تطور الابنية الكلية ووظائفها والضوابط التي تنظم الأفعال.

5- المراحل التي مر به القطاع الصنعي في المجتمع.

6- نمو الابنية التنظيمية بداخله.

وكان يرى أن علم الاجتماع عليه أن يفسر الحالة الراهنة للمجتمع بالتركيز على مراحل التطور الرئيسية وتطبيق قوانين التطور عليها، وقد كان هذا العلم بالنسبة له هو الذي يدرس الظواهر فوق العضوية أو التطور فوق العضوي بتعبير أكثر دقة، وكان تصوره لما فوق العضوي يتمثل في أن هناك اتصالاً في التطور الذي يحدث في العالم غير العضوي، المادة غير الحية ثم التطور العضوي في العالم الحي وأخيراً التطور في تجمعات من الكائنات الحية داخل المجتمع.

وأساس نظرية **سبنسر** في علم الاجتماع هو المبدأ التطوري، ولكنه قدم مبدأ ثانوياً آخر لعب دوراً رئيسياً في نسقه الفكري وهو المماثلة العضوية، وهي نوع من المقابلة بين المجتمع والكائن الحي لأغراض معينة وقد بلورها **سبنسر** على النحو التالي:

ينظم المجتمع على نفس الفرد حتى اننا نستطيع أن ندرك ما هو أبعد من المماثلة بينهما حيث ينطبق نفس التعريف للحياة على كليهما، وحينما ندرك أن المجتمع يمر خلال النمو والنضج والهرم وأن ذلك يسير على نفس المبادئ التي تحدد التحولات التي تمر بها كل من النظم غير العضوية والعضوية ندرك مفهوم علم الاجتماع بوصفه علماً.

أكد **سبنسر** أن هناك فروقاً بين المجتمعات ترجع إلى الاضطرابات التي تتدخل في خط التطور المستقيم، وأورد في كتابه (مبادئ علم الاجتماع) خمسة اضطرابات ممكنة:

1- بعض الخصائص الاصلية المختلفة للاجناس

2- وقع مرحلة التطور المتقدمة حالياً

3- نوعيات العادات أو الطباع وخصائصها الفريدة

4- الوضع الذي يشغله مجتمع ما في نطاق أكبر من المجتمعات

5- أثر اختلاط الاجناس (الاتصال الثقافي في نظرية التغير الاجتماعي)

**ميادين علم الاجتماع عنده:**

تتمثل ميادين علم الاجتماع عند **سبنسر** في الاسرة والسياسة والدين والضبط الاجتماعي والصناعة أو العمل والدراسة السوسيولوجية للاتحادات، المجتمعات المحلية وتقسيم العمل والتباين الاجتماعي أو التدرج الاجتماعي، علم الاجتماع المعرفي وسوسيولوجيا العلم والفن والجماليات.

وأكد على التزام علم الاجتماع بدراسة علاقات التفاعل بين مختلف عناصر المجتمع وبيان كيفية تأثير الكيان وتأثره بها هو الآخر، ومن أمثلة ذلك آثار المعايير الجنسية على الحياة الاسرية، والعلاقات بين السياسية وغيرها من اشكال السلوك المنظم لحياة الناس كالدين والشعائر وغيرها.

ويمكن الاشارة إلى أربعة جوانب هامة من علم الاجتماع عند **"سبنسر**" أحدثت تأثيراً كبيراً:

**الأول**: يتصل بمماثلة المجتمع بالكائن العضوي، إذ أن هذه المماثلة قد أسهمت في ظهور النزعة البيولوجية أو الحيوية في علم الاجتماع.

**الثاني**: ويتمثل في المنهج المقارن الذي أصبح بمثابة وسيلة هامة لكسر الجمود الذي فرضه تصور كونت للمراحل الثلاث بل وإضعاف أهميته إلى حد بعيد، وهذا المنهج هو الذي منح علم الاجتماع مكانة العلم الحقيقي.

**الثالث**: ويتعلق باستخدام **سبنسر** للبيانات الاثنوجرافية في دراسة العمليات والنظم الاجتماعية مما أحدث مزيداً من التقارب بين علم الاجتماع والاثنوجرافيا وتحطيم الحواجز التي كانت قائمة بينهما.

**الرابع**: ويتصل بنظرية التطور ذاتها، وهي التي اوضحت تطور المجتمعات الانسانية ابتداء من العشائر المبعثرة التي ظهرت في فجر التاريخ مروراً بالمجتمعات التي كان لرجال الدين والجيش سيطرة كبيرة، وصولاً إلى المجتمعات الصناعية المعاصرة والتي تؤدي بتعاونها إلى تحقيق سلام دائم وبالتالي إلى تكامل وانسجام أفضل مع الطبيعة.

وقد أكد **سبنسر** على أن يقارن المجتمعات على اختلاف أنواعها وباختلاف مراحلها وتطورها، وأكد أنه يتعين علينا لكي نلم بأسس علم الاجتماع أن نتناول ظواهر البناء والوظيفة كما في المجتمعات بصفة عامة منفصلة قدر الامكان عن الظواهر الخاصة التي ترجع إلى ظروف خاصة.